صورة المرأة في روايات رشيد بوجدرة

نادية باقة

جامعة منتوري قسنطينة

تعرض هذه الدراسة القضية المحورية التي يرتكز عليها إنتاج الروائي الجزائري «رشيد بوجدرة» وهي قضية المرأة في المجتمع الجزائري باعتبارها محورا تتبلور من خلاله مشكلات التقدم الاجتماعي والنموذج الحضاري في علاقة الرجل بالمرأة وذلك من خلال تحليل عام أولاً لصورة المرأة في رواياته ثم تحليل نقدي مفصل لرواية «ليليات إمرأة آرق» للكشف عن أبنية الوعي الاجتماعي والطبقي والإنساني مثلما تتجلى في هذه الرواية وأثر الموقف الذي أتخذه الكاتب في البناء الروائي.

لكل فنان موقف من الحياة ومن قضايا عصره، ونحن نعيش عصرًا طاحنًا تجري فيه الأحداث بسرعة شديدة تتعقد وتتشابك فيه المشكلات التي تواجه الكاتب في العالم الثالث والعالم العربي على وجه الخصوص.

ولهذا يُعد تناول المرأة بوصفها ظاهرة من أدق القضايا وأكثرها حساسية ولهذا كثيرا ما تتم تجزئتها أو تشويه الحقائق بشكل من الأشكال ومن هنا يتحتّم على الكاتب حين يميل إلى دراسة قضية المرأة أن يكون أمينا في تصويره الفني لواقع المرأة وعليه أن ينفذ إلى عمق التجربة الإنسانية والواقع الاجتماعي بأبعاده وخصائصه المتنوعة. وتدل أعمال الكاتب «بوجدرة» الروائية على اهتمامه العميق بقضايا المجتمع والتي منها قضية المرأة التي شغلت بال الكثير من الكتاب فولّوها اهتماما واسعا وأعطوها حيزا كبيرا في أعمالهم القصصية.

يولي «بوجدرة» قضية المرأة أهمية خاصة، فالمرأة عنـــده منبـــع الصداقـــة والأحلام فجاء على لسانه: «إن المرأة أساس الحياة، فهي مركز صداقتي وأحلامي.. إنني متعاطف معهن لأنهن يعانين من التعسف ومن البديهي أنني أقف مع الضعفاء»

تطرح رواياته المشاكل الأساسية المتعلقة بالمرأة والتي تنغص حياتها وتمتـــد هذه المشاكل إلى الأمور اليومية كنقص المواد الغذائية ومشاكل العمل ووسائل النقل من ناحية، وعلاقة الاعتداء والقرصنة بين المرأة والرجل من ناحية أخـــرى؛ تلـــك العلاقة التي تجعلها دومًا في مواجهة سلطة الأب أو استغلال الزوج وتلـــك القيـــود العديدة التي يفرضها عمل المرأة كرعاية الأطفال والعناية بالمنزل الزوجي وأعبائه.

لقد قدم الكثير من الكتاب رؤية ناقصة وقاصرة عن المرأة بوصفها كائنًا إنسانيًا له عالمه الداخلي، فبينما صورها بعضهم عاملاً مساعدًا في استكمال أحداث الرواية وعناصرها، صورها البعض الآخر نماذج جامدة لا تتعدى وظائفها المحـــددة: الأم، الزوجة، الخليلة، أي تلك الشخصيات الجاهزة منذ بداية سير الأحداث إلى نهايتـــها حيث لا يطرأ عليها أي تغيير أو تطور أو امتلاكها منظور ايديولوجي معين.

ولهذا انصبت دراستي حول روايات «بوجدرة» كونها تضيـــف المزيـــد مـــن الايضاحات لعوالم المرأة بمزيد من العمق بشأن ما يجري بينها وبين الرجـــل مـــن تفاهم وتصادم. فبينما نجد الشخصيات الرجالية متأثرة بالواقـــع المتـــأزم فتعـــاني مـــن وطأته من خلال تعبيرها عنه بالفكر والممارسة كما هو الحـــال فـــي روايـــة («الحلزون العنيد»Escargot Entêté نجد في الوجه الآخر شخصيات نسائية تـــتربع دور البطولة مثلما حدث في رواية «ليليات إمرأة آرق».

تشكل المرأة أهم القضايا المطروحة عند «بوجدرة» فقد تناولـــها مـــن حيـــث مواقفها من الزواج، الحب، الجنس، الحياة المدنية والسياسية وقـــد أفضـــت رؤيـــة الكاتب الشاملة لبناء الرواية أن تقدم صورة المرأة وقد أنعكس عليها تـــأثير الواقـــع بجميع أبعاده الإيجابية والسلبية ومن ثم تجعل صورة المرأة أوضح أثنـــاء حركـــة

الأحداث وتطورها، واعية بطبيعة الجوّ الاجتماعي الذي تتحرك فيه. ومن هذا المنطلق تتخذ الدراسة من رسم الشخصيات النسائية والأحداث أساسًا لفرز وتحديد أنماط ونوعيات الشخصيات النسائية التي تقدمها روايات «بوجدرة» فسنجد المرأة بغض النظر كونها أمًا أو زوجة أو عشيقة ضحية للظروف الاجتماعية والاقتصادية السائدة في المجتمع العربي بصفة عامة والجزائري بصفة خاصة فضلاً عن فساد العلاقات الاجتماعية التي أحاطت بكل واحدة منهن.

إن القارئ لرواياته الأولى كرواية «المرث» يجد صورة المرأة السلبية التي لا تحتج على الوضع الفاسد ولا تملك وسيلة الدفاع عن نفسها أو بالأصح تختلف صورة المرأة في الستينات والسبعينات عن مرأة الثمانينات والتسعينات. فالمرأة في الروايات الأولى مرأة سلبية خاضعة راضية بوضعها الذليل الذي اختاره الرجل وسطره لها، فقد جاءت روايتي: التطليق «1969 والرعن 1972» لتعبرا عن وضعية المرأة الجزائرية، تلك المرأة المضحية والمنكرة للذات في سبيل إسعاد الآخرين، ففي رواية «التطليق» تبرز لنا صورة المرأة الجزائرية بمعاناتها من خلال تسليط الضوء على شخصية الوالد – أب الأسرة – ومعاملته مع أفراد أسرته

غير العاقلين أي الإناث. وتتجسد معاناه المرأة عندما تشعر بالإهانة «كانت أمي على علم بالأمر ولم يكن بها لا ثورة ولا خنوع بل كانت تصمت فلا تدلى بشيء ولا تجرؤ على القول بأنها موافقة على القضية فلم يكن لها الحق... إنها مرهقة منهوكة القوى إن قلبها يتورم ألمًا... كان عليها أن تلزَم الصمت فأبي لا يسمح بأي قول أو تعبير... ما أتعسك يا أماه... إن الخوف قد شق رأسها فغدا لا يخرج منه أي تعبير سوى شيء من الضوضاء الغامضة المبهمة... كانت لا تعرفُ كيف تحيط بالواقع فتظل الكلمات كأنها متجمدة في رأسها.»

هكذا تبرز لنا صورة الأم ضعيفة ولا يرجع هذا الضعف إلى تهميشها بقدر ما يعود إلى طبيعة العالم المليء بالصراع بين رغبة الرجل وحرمان المرأة. إنها

صورة إمرأة سلبية خاضعة مقهورة. إلاّ أن هذه الصورة التي رسمها «بوجدرة»وجسّد لنا من خلالها وضعية المرأة في الستينات والسبعينات التي لا تخرج عن الثبات والجمود قد بدأت تتلاشى وتختفي. ففي روايات الثمانينات « التفكك 1982» و«ليليات إمرأة آرق 1985» بدت صورة المرأة مغايرة تمامًا لما عهدناه في رواياته الأولى حيث أصبحت المرأة تشارك في وضع القرار وتخطط لمستقبلها ولها حرية التصرف، وبطبيعة الحال يرجع هذا التطور في وعي المرأة – في الرواية – إلى وضعها في المجتمع الجزائري بمشاركتها في البناء والتعمير.

إذن نلمس التغيير الجذري في تصرفات المرأة ومواقفها ورؤيتها للعالم الخارجي في روايتي: «التفكك – ليليات إمرأة آرق» لقد غابت تلك السلبية ليحل محلها الرفض – الاحتجاج والتمرد. فشخصية «سالمة» في «التفكك»قد جعلت التحدي محورا أساسيا لحياتها ومؤسسة فردية، تكره القيود وحلقات التاريخ المتوالية التي استعبدت المرأة. فهي امرأة عربية متمردة على تاريخ صنعه الأسلاف وتريد أن تضع تاريخا متحررًا، «فسالمة» ممتلئة بحساسية مفرطة «اتجاه الآخر» لذلك يصطدم وعيها بأشكال أخرى من «الوعي المواجه» هذا الأخيرالذي يبدو متخلفًا وسلطويًا وقمعيًا ممثلا في الرجل. فتحاول أن تحب فلا تستطيع لأن الرجل في مجتمعها لا يصعد إلى تخوم أحلامها وتصوراتها ومفاهيمها التحررية في قولها: «أنا لا أستوضح بصفة جلية نزقي وتمردي ليس فقط على الطاهر الغمرى وعلى الحزب الذي لم يعرف كيف ينتهز الفرصة بعد زلزال 1954 فحسب، بل كذلك على الوضع السائد وعلى عيشي أنا كامرأة شيدت التحدي محورا أساسيا لحياتها ومؤسسة حياتية برْمتها، أنا لا اكرَهْ الرجال، أنا حاقدة على التاريخ فقط».

الملاحظ هنا أن صورة «سالمة» أثناء حركتها في الرواية واعية بطبيعة الجو الاجتماعي الذي تتحرك فيه، ومن ثم فهي تلتزم بسلوكها وفكرها الحر لتبحث عن ذاتها من خلال رواية «ليليات إمرأة آرق».

تطرح رواية «ليليات إمرأة آرق» الموضوعات الحميمية والمتصلة بحياة المواطن فتجسد لنا طبيعة الواقع الذي نحياه في حياتنا اليومية الاعتيادية وما يتصل بوضعية المرأة في ظل الواقع وانعكاس الأوضاع على علاقتها بالرجل. من هنا تبدأ بذرة الإحساس بالقمع من قبل المجتمع/ الممثل في الرجل، ومن ثم ينعكس الإحساس بالقمع على تصرفات المرأة مما ينجم عنه صراع تعاني منه المرأة من أجل تحقيق ذاتها ومسايرة ركب الحضارة رافضة مسايرة تخطيط الرجل لحياتها. من هذا المنطلق ومن نظرة الرجل الرجعية إلى المرأة هي التي تجعلها في «الليليات» تصارع من أجل تحقيق ذاتها، ويتجلى صراعها في التمرد على العلاقات الاجتماعية والإيديولوجية السائدة في المجتمع الجزائري. ونذكر هنا أن الأيديولوجية من إنتاج من بيدهم السلطة وحتمًا ليست بيد النساء، كما أن المرأة

تُجبرُ في نضالها من أجل تحررها فكريًا وماديًا على المساومة، فكل مسألة تحرير المرأة تكمن في قيمة هذه المساومة فمثلاً النساء العاملات مهما كان شكل وُصُولهن إلى عالم العمل بالضرورة أو الرغبة في التفتح الشخصي، فهن مسؤولات عن النتائج المدرسية للأولاد وعن الادارة المقصرة للبيت الزوجي. وللنضال ضد هذا الاتهام، تنهك معضمهن في نهار عمل مزدوج وبكل أنواع القيود لتطلعاتهن الشرعية أي الجزية التي يجب أن تدفع في سبيل ترقيتهن.

تعكس لنا الرواية الانفصال الذاتي في سعيها المتواصل واقتلاع «الآنا» من شروط وجودها في تاريخ العام نحو تاريخ خاص لتجاوز شكل الحياة القائمة نحو حياة يُرغب ممارستها لصالح «الذات» بالدرجة الأولى ثم مصلحة الآخرين كدعوة عامة للمشاركة أي الانطلاق من الجزء للوصول إلى الكل.

إن رواية «ليليات إمرأة آرق» رواية عالم مترامي الأطراف تجمع بين الثالوث المحرم «الدين – الجنس – السياسة» وهو ما يمكن أن نصفه في إطار العلاقات التفاعلية في النص الروائي والمحرك الأساسي أو الدافع وراء القضية التي تتولد

عنها المتواليات اللفظية في الرواية. فشخصية الطبيبة الأخصائية؛ بطلة الرواية اضطلعت بالكشف عن مفهوم الجنس لديها كونها إمرأة، وتكلف الرجل بواب عيادة بطلة الرواية للكشف عن الخلفية السياسية في الرواية، ولهذا اكتست الرواية أهمية كبيرة في إعطاء الخلفية الاجتماعية والنفسية لشخصيات الرواية فصورت ورسمت بدقة المنحنيات والإلتواءات النفسية التي يعيشها الفرد الجزائري ممثلة في المرأة الجزائرية. وسوف تجسد لنا بعض المقتطفات القصصية – التي نستعين بها – طبيعة الواقع الذي تحياه المرأة ووضعيتها في ظل هذا الواقع وانعكاس الأوضاع على علاقتها بالرجال. يختزل كيان المرأة في الرواية إلى عنصر أنوثة يؤدي وظيفة الإنجاب أو أداة متعة وهو في كلتا الحالتين أداة يملكها الرجل.

إن مفهوم الجنس الذي بطالعنا في مقتطفات الرواية يعد ضمن آلاف المفاهيم المتخلفة التي تحكم الواقع العربي لكنه يجسد أكثر طبيعة هذا الواقع، والرجل الذي ينظر إلى الجنس كعملية إذلال هو رجل حرمه مجتمعه من كل شيء؛ من الحرية والفاعلية والإيجابية وتحقيق الذات، فألهاه بمعارك وهمية يحوز فيها انتصارات وهمية تكرس إحباطه وعجزه. ويؤكد هذا الحكم رأى الدكتورة «لطيفة الزيات» التي تعرضت إلى مسألة غياب الحرية في المجتمع والنتائج التي تترتب عليها فتقول: «كلما غابت الحرية في مجتمع من المجتمعات تفاقمت الأزمة وأزداد الشعور بالإحباط وتزايدت الحاجة إلى كبش الفداء ساء وضع المرأة. وهو وضع لا ينفصل عن ماض مثقل بالهيمنة الاستعمارية والطبقية بتفاقم مع تصاعد الأزمة الراهنة التي تصالحنا على تسميتها بأزمة الحرية والديموقراطية».

تبدو لنا صورة المرأة في «الليليات» مختلفة تمامًا عن الصورة الوديعة المألوفة، الخاضعة، الخائفة، السلبية والمقهورة، إنها امرأة متمردة حذرة، واعية بكل ما يجرى من حولها وحاقدة على الرجل في قولها: «يا للسخافة الرجال أكثر تعويلاً من النساء، كان أخي يبكي بدون سبب يبكي... أنا لم أبك قط لا أعرف للبكاء معنى.

تركتُ الدموع ملكًا لأخي الطيار... ورغم طلاء الندى والرطوبة في فصل الصيف، أظل جافة... جافة أنا وقلبي جاف أيضا، هذا ما علّمني الرجال إياه، علّموني أن أقهر قلبي ألا أتركه يتعصر، هم يسبحون في ورديّاتهم... وكلثومياتهم... أما عيناي فتبرعتا بدموعها كلها منذ الصغر أهديتها أقربائي، أصدقائي... أمي كذلك كانت نادرة التأثر، أما حركاتها لفرط وضوحها، فكانت تجعل الفضاء والأثاث... يلمعون حولها... كانت حريصة كل الحرص على خلق بينها وبين الناس – بما فيهم الوالد – وبين الأمور مسافات شاسعة... والعالم من حولي يسقط في الغفوة رويدًا رويدًا كيف يتسنى لي فرز الأمور السياسية والاجتماعية والنفسية وقدتشا بكت كلها تعقدت حتى أنني تهتُ في متاهات المدينة وأنا أشاهدها من نافذتي... وتجهل المدينة ما ينخرها في الداخل من وباء وهي غائصة في غفوة بلهاء في الوباء في تضخمها وتكرّشها ونسمتها من جراء ما انتابها من غرور ووصولية».

كشفت لنا المقتطفات السابقة صورة المرأة اليقظة، الواعية والمثقفة ولم يتبرز لنا المقتطفات جملة واحدة تتحدث فيه المرأة عن جمالها وأناقتها بل كان اهتمامها منصبا في تطهير المدينة من مخلفات الاستعمار وأذنابه فتقول: «يقظة أنا وغيورة على حقوق الدولة ومبادرتها (سخرية؟) لو كان جميع الموظفين مثلى لكانت المدينة في هذه الساعة تبرق برقا عوضا من تخبطها في أوحالها وقَذَارتها وبَلْوعَاتها... لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسم وفوضى سكانها إنما سيقضيان عليها، لكن اضطررت إلى حذف ما كتبت كي أرضى رؤسائي (حذار من الرقابة)».[2] هكذا يسير موضوعي السياسة – الجنس وسط دائرة داخل حركة أفقية وعمودية نحو الهدف لتروى لنا المشاكل اليومية التي تعترض المرأة، من نقص المواد الغذائية وغلاء المعيشة وعلاقة الرجل بالمرأة والتي هي علاقة اعتداء وقرصنة في قول بطلة «الليليات»: «يمتلكني الندم في تلك السلعة، الخشوع أحزن لما أكرسه من عنف وكراهية ضد الرجال ولما أشن ضدهم من حروب كنت أتوق عيشة مسالمة».

تقودنا مقتطفات الرواية إلى القول، أن الصراع بين المرأة والرجل يحتل الحيز الأكبر لتعميق فكرة الرواية وتطوير المسار الدرامي للحدث وتصوير حقيقة مشاعر الشخصيات الرجالية والنسائية وذلك بتسليط الأضواء على الجماعة المرفوضة من قبل الكاتب والتي تمثل جو الفساد المنتشر في المجتمع الممثل في تلك القيود البالية التي تسببت في السير لخاطئ نحو التقدم والازدهار والتطور. ولهذا تعيش امرأة «الليليات» من يوم إلى آخر وسط مجموعة من المنبهات الخارجية والداخلية الحادة داخل واقع معاصر وسط مدينة تضخمت بسكانها وكادت تتفجر والشوارع ممتلئة بالعمال والعاطلين والمدينة مشوهة بالعاهات أثرياء الثورة الذين يخزون أموالهم والتجار الصغار ينمون نموًا سرطانيًا والمواطن البسيط يقتله المقاولون والدجالون والوصولية من خلال وعى المرأة بهذا الواقع بأسلوب تهكم وسخرية. لقد تعرضت البطلة لظروف قاسية خدعت بكلمات معسولة فأعلنت الحرب والحقد على الرجال، وبدأت نيران المعركة تشتعل فراحت تفتح سجلاً تدون ليلياتها وإملاء الفراغ الليلي بقولها: «فأحشوا بقطن الكلمات ذلك الآرق المزمن، تتورم الألفاظ في أحشائي أموت شوقًا، أتأوه، أتوجع وكلي حذر، أحترس من البوح للناس بما أعاني فهناك الداخل وهناك الخارج»[1]

يتخيل القارئ أمام هذه المقتطفات شكل المادة القصصية التي تنبثق من هذا الخلط الناتج عن التقديم والتأخير فهناك التشعبات والتشابكات والشحنات لأن شخصية المرأة في الرواية ممتلئة بحساسية مفرطة اتجاه الآخر لذلك يصطدم وعيها بأشكال أخرى من الوعي المواجه، هذا الأخير الذي يبدو سلطويًا وقمعيًا ولهذا تتفضل العزلة والانطواء. كما جعلها الكاتب الشخصية المحورية الوحيدة التي نرىفي ضوئها كل الشخصيات الأخرى، وقد أدخلها بسرعة إلى مصرع الأحداث ملما بخيوط الماضي جاعلاً إياه محركا مستمرًا لمشاعر المرأة ودافعا لحركاتها.

تكشف لنا الرواية عن نظرة الكاتب في تصوره للمرأة، تلك النظرة التشاؤمية التي قادت البطلة إلى العبث والتمرد والتحدي في قولها: «أغوص في لجة الفراغ، في العدم في اللاشيء، أنا التي جعلت من الآرق مبدأ حياتي، ها أنني أنهار فجأة وفي خضم النعاس أغطس».

لقد تأثرت الناحية البنائية للرواية بموقف «بوجدرة» حول قضية المرأة وصورتها في المجتمع الجزائري، ولهذا قام بناء الرواية على خط الصراع الأساسي بين المرأة والرجل، بين البطلة والمجتمع. «فالشكل والمضمون شيء واحد داخل الخطاب المعتبر بمثابة ظاهرة اجتماعية هو اجتماعي في مجموع مجالات وجوده وعناصره ابتداء من الصورة السمعية ووصولاً إلى التصنيعات الدلالية الأكثر تجريدًا». فلا تكمن قيمة الرواية في معرفة الأحداث بل في الشكل الذي تعرض فيه، لأن أهمية الرواية لا تكمن في سرد الأحداث ووقائع الرواية بل في كيفية توظيفها داخل البناء الروائي. والملاحظ أن موقف الكاتب قد أثر في تصويره لعالم المرأة وما يختلج في نفسها من أسرار ومكبوتات على إيجاد الأساليب المناسبة التي تغطى الموقف وتتلاءم مع حجم المأساة التي عاشتها البطلة، الأمر الذي دفعه إلى استخدام «تيار الوعي» الذي تدفق بكثرة كاشفا عن مستويات الكلام دون ترتيب منطقي أو تسلسل للأحداث أو التزام بوحدة الزمن.

وأخيرًا نحط رحالنا عبد رحلة مع بطلة الرواية في عالمها الداخلي المرتبط عضويًا بالظروف الاجتماعية والاقتصادية من أجل استعادة إنسانيتها المفقودة، إنها فتاة لا تجد في جمالها سوى سلعة قابلة للبيع. إنها تنتمي إلى شريحة من شرائح المجتمع حيث الجهل والخيانة والجريمة، تتخبط وسط دهاليز عالمها المظلم الذي صوره الكاتب غابة وحوش. لكن من خلال الكشف المستمر لعالم المرأة تتضح مناطق الظلام، الضياء، السواد، البياض، وبعد تراكم طويل من الخبرات وبعد أحاسيس مريرة قادتها إلى حافة الانتحار ها هي تقرر تغيير واقعها ترى نفسها

ولأول مرة كائناً إنسانيا له عقل وفكر وإرادة فقررت الحياة وها هي تقول: «قـررت أن لا أنتحر نكلة في الرجال... نكلة في الرجال... نكلة في الرجال. إذن لا أنتحـر! علَيّ بإلغاء هذا الهوس نهائيا. لن انتحر... نكلة... نكلة. كذلك قررت أن أتوقف عن مواصلة تدوين ليلياتي في هذه اللحظة بالضبط لم يعدّ لها معنى ولا ضرورة».